منهاج السّماع في الأدبية المغربية المجلسية

أ. محمد شرفي

جامعة الشلف ـ الجزائر

إنّ من أهمّ المبرّرات المنهاجية التي يدعّم بها مفهوم الثقافة المغربية المجلسية هو شيوع التّواصل المعرفي الدّرسي الذي يقوم في أدائه على الإلقاء والتّلقّي، ففي هذا الصّدد يروى عن سحنون ويسمع منه ابن مسعور، نظرا لكثرة الرحلات وتعدّد الأسفار، وقد كان لمدرسة الحديث بالقيروان الوازع الأكبر في اتّصال العلماء وتوافي الآراء، ونعتقد أنّ لتواصل الرواية بين الأعلام المغاربة قد كان له الفضل المتين في توطيد أواصر إذاعة الأدب وتسييره بين أعلام المنطقة ومشايخها.

لقد اتّصلت مجالس الأدب ومحاضراته بمجالس الذّكر التي تعوّل في ظاهر نشاطها المعرفي على المعاني الدينية، غير أنّها ظلّت أبدا توصل ذلك النّشاط القرآني بجملة من النّشاطات الأدبية التي تقوم على اللّغة والنقد والحفظ والاستظهار، وهو ما ترتّب عليه ظهور دور الأدب وبيوتاته، التي ربّما كانت النّواة الرئيسة في نهوض تقاليد التّعليم الحديثة من مدارس وجامعات، واللاّفت للنّظر والرّأي أنّ البيئتين الأندلسية والمغربية معاً كانتا تحت طائلة تأثير هذين المناخين إلى يومنا هذا بالقدر الذي يجعل المنطقة تتميّز التّميّز الملفت للانتباه، وإذا ما تحتّم عليها وجوب السّعي إلى الإنصاف في تداول هذه المسألة، فإنّنا نقول إنّ الرّأي الفقهي بمداومته المحافل الجماعية، لم يخل في أيّة مناسبة من مناسبات تداوليته أن يتّشح بالمسحة الأدبية التي ربّما كانت تمثّل أقوى المواقف على الإطلاق، وكذلك نرى أنّ مدينة تونس كانت موئلا لثلّة من علماء المغرب وفقهائهم أيّام الدّولة الحفصية، حيث كانت تستقطب علماء الأندلس والمغرب معا[1].

ومن أهمّ ما يسجّل في موضوع اتّصال الأدبية المغربية القديمة بالممارسة المجلسية، أنّ كثيرا من كتب أعلامهم ظلّت تحتفظ بالنّهج الدّرسي الذي كان يتلقّى في شكلّ أمالي أو محاضرات، تنتهي

إلى اجتهاد الطّلبة في العمل على جمعها وإبرازها إلى حيّز التّداول بين أيدي الناس، (وبفضل هذه الحركة – حركة الفقه والحديث والتّفسير – برز رجال عديدون كان لهم دور كبير في هذا الميدان، وفي الحركة الثقافية ككلّ نجد أخبارهم مدوّنة في كتب التّراجم الدينية واللّغوية، وعلى الأخصّ ("رياض النّفوس" للمالكي، و"معالم الإيمان" للدّباغ، و"المدارك" للقاضي عياض، و"الدّيباج المذهّب" لابن فرحون، و"طبقات أبي العرب" الذي بلغت تآليفه فيما يقال اثنين وتسعين كتابا)[2]، وممّا يستخلص بعد استعراض مكانة العلماء المغاربة أنّهم جميعهم ظلّوا متّصلين بالممارسات العلمية الدّرسية التي ظلّت تربطهم بالآراء المجلسية مع طلاّبهم ومريديهم، وقد تمكّنت منهم هذه المزية، وترسّخ فيهم هذا الاعتبار، حتّى صار معلما دالا على وجهة ثقافية هي التي اعتمدناها سبيلا لمقاربة النقد الأدبي المجلسي في الأدبية المغربية بامتياز ظاهر لا يكاد يخفى على المتفكّر.

إنّ من أهمّ ما ينتج عنه نزوع المجتمعات إلى اعتماد الثقافة الاحتفالية أو المجلسية، هو خضوع علاقاتهم الاجتماعية لطبيعة الحلّ والارتحال المولّدين لطبيعة عاطفية ونفسية، تتّصل الاتّصال الوثيق برغبة الإنسان في ملاقاة الآخرين والرّغبة في التّواصل معهم، حيث نرى أنّ من شأن تلك الأحوال أن تكون سببا في إثارة حسّ القلق لدى الفرد، وعدم الاطمئنان إلى ملكية المكان.

والأدب في كثير من تجلياته الاجتماعية لابدّ من أنّه ينحو منحى جماعيا بالقدر الذي تمكننا نسبة آثاره المعرفية إلى النّشاط الجماعيّ، الذي تسهم الذاكرة الجماعية والانفعال الجماعي في ترسيم كثير من مظاهره الإبداعية ودلالاته الفنية والجمالية، بل حتّى الفكرية منها، ووفق هذا التفهّم فقد ألفينا عبد الرحمن بن خلدون يلتفت إلى هذه المسألة فيسمّيها: "أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد"[3]، ويعني بذلك فترة الأدب المغربيّ.

والثابت في هذه الرؤية التقديرية التي نسعى لبلورة مفهومها وتشخيص مظاهرها الأدبية والثقافية الجماعية طلبا لتحقيق جملة المفاهيم التي تبرّر السلوك النفسي والاجتماعي المصاحبين لكلّ نزوع أدبي جماعي، أنّ الأدبية المغربية غالبا ما تتشخّص مناسباتها وفق هذا السّلوك الأدبي النقدي الذي لاشكّ في أنّه يتساند إلى تراث عربيّ معرفيّ تمتدّ آثاره في أغوار التاريخ الأدبي العربيّ الطّويل،

حيث نعتبر الأدب المجلسي أحد أبرز تجلياته، فغالبا ما يسعى النقاد والمؤرّخون لإثبات النسبة الجماعية لكلّ ظاهرة أدبية، حيث يتلخّص ذلك المفهوم في إسناد الخطاب النقدي إلى ضمير الجماعة الغائبة:(هم)، لأنّ الحقيقة أنّ الواحد منهم ينزع المنزع الإبداعي، متضمّنا دلالة الاجتماع والقوّة النفسية الواحدة[4].

وإذا كان لنا أن نلتمس مبرّرات الثقافة المجلسية في الأدبية المغربية ونعتبرها خاصّية راسخة ثابتة تعلّم لهوية حضارية متميّزة، فإنّه ليس في إمكاننا تجاوز أثر الفرق الدّينية وتأثّر التّفكير الأدبي في نطاقيه الخطاب والنقد، المنهاج ذاته الذي تتأدّى به الثقافة الفقهية، وقد غنيت السّاحة الثقافية المغربية بالزّخم الديني الذي يكاد يغلب على ما سواه من النّشاطات الأدبية والمعرفية الأخرى، وربّما تبلورت هذه الفعالية في شيوع التفكير الصّوفي الذي ناسبته البيئة المغربية ولاءمته ظروف الحياتين السياسية والاجتماعية، فقد كان انقطاع المتصوّفة عن مخالطة عامّة المجتمع، داعيا للتّحلّق والمحاضرة والائتلاف المذهبي المجلسي الذي يكاد يتبلور في شكلّ نزوع مدرسيّ متكامل الشّروط، ولعلّ من أبرز ما نستند إليه في تبرير منطلق الثقافة الأدبية العربية المغربية هو انتقال الإقبال على ابتداع الأدب من حيّز الشّعر إلى ظهور الممارسات الأدبية النثرية التي من خصائصها أن تخضع للقناعات النفسية والفكرية الجماعية – أي الحسّ والذّوق الجماعيّ – وكذلك نحسب أنّ الأدبية المغربية كانت في حقيقة تداولها بين النقاد والمفكّرين، فقد طفرت إلى الوجود قناعات فكرية وفنية كان من أبرزها (الأدب الفاكه) – أي الذي يتّصل بالأداء الحضوري الجماعي – لأنّه يهدف إلى التّطريب والمؤانسة، وهما أسلوبان غالبا ما يكونان متّصلين بالأداء المجلسي.

نتصوّر أنّ الأدبية في كثير من تجلياتها الإبداعية لابدّ من أن تقوم على حصول القناعات الفردية والجماعية وهي التي – إذا ترسّخت – تخوّل للأديب حقّ التّعاطيّ، من ذلك ناسب أن نسجّل احتفال الأدبية المغربية بالمظاهر الجماعية والاحتفالية، إضافة إلى الإقبال على ممارسة الكتابات

الأدبية التي كانت محلّ تشكّك، ونعني بذلك الحكايات والأخبار والفكاهات والروايات، وربّما تجسّد معنى هذا كلّه في (فنّ المقامات والخطب والمحاورات)[5].

وقد يكون من المناسب هنا أن نخلص إلى فرضية قوامها أنّ ابتداع الخطابات الأدبية متطلّب لحال التّوتّر والحركة النفسية، وأمّا أمر علم النقد وثقافته فلا ينجم إلاّ عن نفس طاب لها المقام والاستقرار، ونحسب أنّ تلك الموافقات الاجتماعية والنفسية قد توافرت أسبابها تامّة، حتّى كانت ديدن المجتمع المغربيّ، فقد تشبّع بروح المنازعات والمنافرات فيما بين الدّويلات والمقاطعات، وقد كان لذلك التّحايز المكاني أثر بالغ، أنتج لدى الأدباء المغاربة استراتيجية التّنويع في الإقامات، وليس ذلك إلاّ لكون كلّ بقعة من تلك البقاع المغربية قد ظلّ يستأثر بالمواقف السياسية والاجتماعية القلقة – أي تلك التي لا تستطيع أن تدوّن على نسق أو منهاج – ولا يمكننا إلاّ أن نتصوّر حيل الإنسان في ابتداعه النّزوع الفنّي الطّبيعيّ إلاّ واردا من جهة تمثّله للمعطيات الواقعية، حتّى كأنّه تفوّضها أمر استملاء الأشكال والتّعابير والأساليب والأفكار والمعاني، فليس يكون هو – أي الأديب – سوى واسطة بين الظّاهرتين: الظّاهرة الاجتماعية والظّاهرة الأدبية الفنية، وقد قال الحصري في "زهر آدابه" ما يصدّق هذا الظّنّ، ويرسّخ هذا الاعتقاد حين قال: (... وقد وجدت حذّاق المتقدّمين وأرباب الصّناعة من المحدثين يحرسون في مثل هذا الحال احتراسا يجنّبهم شوائب النقصان، ويقف بهم على محجّة الإحسان، حتّى يقع الاتّصال ويؤمن الانفصال...)[6]، ولنتصوّر أحوال الأدباء والشّعراء ونقاد الأدب، كيف كانوا مضطرين إلى مجانسة هذه المعطيات باستيعاب شروطها السياسية والاجتماعية، حيث كان لزاما عليهم أن يلتزموا طبيعة مشاكلة لتلك الالتزامات القلقة، ولتثبيت حال الواقع المغربيّ الذي كانت تنبع منه القناعات الأدبية فقد يكفينا أن نرى إلى إشكالية ثنائية الأدبية والواقع، (على أنّ عادة الاستعمال في اللّغات مقدّمة على حقائقها، وهي أولى بالظّاهر من أصولها ...)[7]، وربّما كان لتدافع حكّام الدّويلات أثر بارز في اتّسام الأديب المغربيّ بالتّقلّب والمغايرة، فهو لا يكاد يصافي هذا إلاّ وتبعته شروط الآخر ومطالبه.

وإذا كان الأدب الأندلسي قد نحا منحى مجلسيا قوامه أن يتأدّى وفق مطالب الأنس والطّرب، مثلما هي الحال لدى مجالس الإنشاد والطّرب بإشبيلية، كمجلس (أبي بكر الأبيض الوشّاح)[8]، فإنّ المجالس الأدبية المغربية قد انزاحت عن تلك الوظائف والمهامّ إلى المدارسة والمحادثة والبراعة في علوم الخطابة والقراءات، وقد غنيت كتب الأندلسيين والمغاربة بمثل المقولات التالية : (... فجلس حيث انتهى به المجلس، وجرت المحاضرة ...)[9].

ولقد تأمّلنا في المرجعيات الثقافية التي غالبا ما تتساند إليها الأدبية المغربية من وجهتيها الخطابية والنقدية العلمية، فألفيناها لاحقة في أغلب مناسباتها بالسلوك الثقافي المجلسي (... فلم يكن يجد المعزّ بن باديس مضيعة للوقت في أن يعقد مجلسا ويستدعي شعراء، لا لشيء إلاّ لينظموا في وصف طعام من الأطعمة أو شراب من الأشربة أو صنف من الفاكهة ...)[10].

ومثلما يبدو فإنّ من شأن المجلس أن يصدر عن تفكير فردي أو جماعي يستند إلى قناعات نقدية وثقافية تكون بمثابة الإجماع الذي يصدر عنه كلّ الأعضاء المساهمين في الجلسات الأدبية والنقدية.

ونحسب أنّ الممارسة الشّفوية للأدب قد تأتّت من الاحتفالات المجلسية بفنّ بلاغات الخطاب العربيّ، حيث ركّز النقاد اهتماماتهم على بلاغة التّلفيظ بحثا عن إيقاع الملاءمة من مثل(...حسن الكلام في السّمع، وسهولته في اللّفظ، ووقع المعنى في القلب ...)[11].

إنّ أفضل نقد للأدب منطوٍ بالضّرورة على تلك المواقف الاحتفالية التي تأسّست عليها الطّبيعة الأدبية العربية الأولى، ونعتقد أنّ مفعولها ما يزال ساريا، تهفو إليها كلّ طبيعة فنية كلّما دعت الحاجة إلى تصحيح المسار الفنّي، وتجديد الالتزام المبدئي بمزاولة صفاء الفنّ وطبيعته الإبداعية، فالمجالس بطبيعته يهفو إلى بذل كلّ أسباب إتقان النّموذج الأدبي، باعتباره صار معتادا على طبيعة من التّلقّي، وخصائص التلقّي قد صارت هي المعيار لدى أفراد المجلس الأدبي، لا يستطيع التّخلّي عنها

مهما ألزمته حاجة الفرادة والغنائية إلى مخالفة المقاييس النقدية الجماعية السارية الأعراف والأحكام، ونعني بذلك الظّروف والملابسات التي يجري فيها الخطاب[12].

وبناء على الاحتياط الذي ظلّ الأديب المغربي يتبنّاه، فقد ولّدت فيه شدّة الاحتراس من الخطأ في تقدير الحسابات والأبعاد أن لا يظلّ وفيا ملتزما بالآراء التي يراها ويتبنّاها، فقد يدعوه استبدال موضع بآخر إلى إنكار المقدّرات التفكيرية التي ظلّ يحملها، ولنتصور كيف يكون حال النقد الأدبي وهو يوضع هذا الموضع، ويطأ هذا الموطىء، مع العلم أنّ الأدب – سواء في غاياته الإبداعية أو النقدية – لا يمكن إلاّ أن ينتسب إلى الجمال والفنّ، وكيف للفنّ الذي هو متعارف عليه بأنّه حساس أن يتفادى الوقوع في مطبّات تبديل المواضع والمناصب وجميع الالتزامات التي قد يفرضها عليه الحاكم المغربيّ، ولقد بلغنا في عرفان هذا الحرج أنّ مضايق التّحزّبات الاضطرارية لم يسلم منها حتّى الموقف الفقهي والشّرعي، الذي غالبا ما كان يتّخذ الأبعاد التّأويلية أو التّخريجات البلاغية التي يتّخذها العالم ورقة توت يواري بها سوأة المواقف الالتزامية التي يكون قد توصّل إليها فعلا عن طريق تمحيص الفكر وتقليب الرّأي.

وبالرّغم من أنّ الظّروف التي تحامت حياة العرب والمسلمين على توالي مراحل تاريخهم الطّويل العريض، فقد طفقوا خلال معايشاتهم لمختلف الظّروف والبيئات وتأثّرهم بمختلف الأقوام والطّبائع، يختطّون لهم المسار الحياتي الذي يحاولون في كلّ المناسبات ربطه بالمرجعية العربية الأمّ – أي تلك النّي يجدون فيها الموئل والأرومة والحمية – ولنا أن نستوثق بعد بسط كلّ هذه المسوّغات أن نعتبر القرينة التي هي المرجعية المفسّرة لإيقاع المجاز على أنّها ذات أصول اجتماعية ناشئة عن المواضعات التي تتبنّاها الجماعات الثقافية في مجالس أدبها ومناسبات أنسها، وتساندا إلى قوّة هذا القياس فقد صادفنا القدماء يسمّونها (شهادة العقل) مقاربة لمفهوم المجاز العقليّ أي المنطقيّ المعقول[13]، وتبعا لجملة ما حصّلوه من تنوّع التّجارب وحصول الغايات، فقد قاربوا خلال تلك التّنويعات الحياتية ضروبا من المنهاج التّعليمي أو الثقافي الذي يحفظ لهم هويتهم الحضارية، لذلك – ومهما تناءت بهم أسباب التّلاؤم بالنّظر إلى اتّساع جغرافية الوطن وتنوّع البيئات والأخلاق – فقد

استأنسوا بكلّ المعارف التي لووا فروعها لتتلاءم مع خصوصياتهم الروحية، وكذلك نحسب كانت حياة الأدباء المغاربة، بالرّغم ممّا تحامتهم من عسرة المحيا وقساوة الشّتات، فقد ظلّت أدبيته العربية الإسلامية المغربية تحتفظ لها بالهوية والمرجعية التي لاءمت الأدبية العربية الإسلامية المشرقية في كثير من الميزات، وفارقتها في بعضها بالقدر الذي يثري ولا يفقر، وبالنّسق البنائي الذي يعلي ولا يقوّض.

لقد كان التّحدّي الأبرز والحاسم الذي تحدّى سيرورة تشخّص خصوصيات الأدبية المغربية، وتبلورها في صورة النّموذج الأدبي الذي يعكس خصوصية المرحلة والمنطقة والهوية الحضارية، هو وقوفها الموقف الممتحن لنصاعة هوية تجربتها الحضارية التي لم يقدر لها إلاّ أن تستوعب نهج التّواصل مع التراث العربيّ الإسلامي الغائر الأبعاد، وقد فتّشنا بواعث الانفعال المغربيّ بالقيم الأدبية والفنية، وتدبّرنا أسرارها الفنية والبلاغية، فألفيناها تكاد تطغى فاعلية النّشاط الأدبيّ المجلسي حتّى ما هناك شيء يواريها.

ووفاق هذا التّشبّع المنهاجي فقد صادفنا عبد الرحمن بن خلدون ترقى به هذه الفكرة ويتمكّن منه هذا الاعتقاد إلى أن يبلغ بالقول درجة التسمية والاصطلاح، فينتج المصطلح الذي يفيد ذات الفائدة ويدلّ غاية الدّلالة، فيلخّص تلك القناعة في مقولة قوانين التّعليم في المجالس[14]، ومن ثمّة الأدبية العربية الإسلامية بكلّ تفاعلاتها الروحية، وقد كان لها - بحسب اعتقادنا - ما تمنّت وإليه طمحت ودأبت، فقد انتهت بها فرص التّجريب إلى الاستقرار، إلى الاطمئنان، إلى منهج غالب على الحياة لا يكاد يتناقض في تبدّياته إلاّ بالقدر القليل النادر، ونعتقد بأنّ منهاج الأدبية المجلسية هو أحد أبرز معالم الأدبية المغربية سواء أتعلّق الأمر بابتداع صنوف الخطابات أو مختلف النّزوعات العلمية المنظّرة لنقد الأدب والفلسفة والمخاطبات الأخرى، ونحسب أنّ نضج هذا المنهاج هو الذي كان قويا على إنضاج الشّخصية الحضارية وتطويع المنهاج وترسيخ التقاليد والأعراف والطّبائع

والسّلوكات والطّقوس بالمستوى المعتبر الذي صار شاهدا أدبيا يعلّم لخصوصيات الأدبية المغربية بكلّ تحدّ وامتياز.

مراجع البحث و إحالاته

1 – ينظر: حازم القرطاجنّي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت ـ لبنان، ط:3، 1986، (المقدّمة)، ص61،60.

2 – د. بشير خلدون، الحركة النقدية على أيّام ابن رشيق المسيلي، الشّركة الوطنية للنّشر ، الجزائر، 1981، ص28.

3 – ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ج:1، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط:2، 1988، ص805.

4 – ينظر: المصدر نفسه، ج:1، ص806.

5 – ينظر: زكي مبارك، النّثر الفنّي في ق4هـ ، ج:1، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ط:2، د.ت، ص201.

6 – أبو إسحاق الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق علي محمّد البجاوي، ج:2، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط:1، 1953، ص597.

7 – القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبّي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، المكتبة العربية بيروت لبنان، ط:3، د.ت، ص80.

8 – ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ج:1، ص818.

9 – المصدر نفسه، ج:1، ص819.

10 – محمّد زغلول سلام، الأدب في العصر الفاطمي، منشأة المعارف بالإسكندرية مصر، د.ت. ص12.

11 – أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط:5، 1997، ص270.

12 – ينظر: محمد المبارك، اسقبال النّص عند العرب، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، ط:1، 1999، ص263.

13 – ينظر: يوسف بن أبي بكر السّكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط:1، 1983، ص ص167،166.

14 – ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ج:1، ص821.